

ماهية التصوف وعقائده

د. لطف الله خوجة – مكة المكرمة

الأقوال التي وردت في تعريف التصوف زادت على الألف، كما يقول السهروردي، وقد ظنّ من ظنّ أن التصوف هو: الفقر والزهد فحسب، وليس الأمر كذلك، فإن الفقر ليس هو التصوف، بل التصوف شيء وراء ذلك، يقول السهروردي: «**التصوف: غير الفقر، والزهد غير الفقر، والتصوف غير الزهد، فالتصوف: اسم جامع لمعاني الفقر ومعاني الزهد مع مزيد أوصاف وإضافات لا يكون بدونها الرجل صوفيًا وإن كان زاهدًا وفقيرًا**»[١].

فما هذه الإضافات الزائدة؟ يقرر أئمة التصوف ثلاث قضايا، عليها يقوم التصوف، قال رويم: «التصوف مبني على ثلاث خصال: التمسك بالفقر والافتقار [الفقر]، والتحقق بالبذل والإيثار [المجاهدة]، وترك التعرض والاختيار [الفناء]»[٢].

هذه أركان التصوف، ولعل أهمها على الإطلاق هو الفناء، قال أبو المواهب الشاذلي: «الفناء هو أساس الطريقة، وبه يتوصل إلى مقام التحقيق، ومن لم يَجُد بمهر الفنا، لم يستجُل طلعة الحسنا، وليس له في غد واليوم نصيب مع القوم»[٣].

ويقول التفتازاني شيخ مشايخ الطرق الصوفية بمصر مؤكدًا هذه النتيجة:

«الفناء في الحقيقة المطلقة، وهو أمر يميز التصوف بمعناه الاصطلاحي الدقيق»[٤].

وعلى ذلك، فإن الصوفي لا يكون صوفيًا إلا إذا كان يعتقد حقيقة الفناء بالمصطلح الصوفي، إذًا، فالفناء هو: حقيقة التصوف، وهذا ما توصل إليه الباحث في التصوف، المستشرق الإنجليزي نيكلسون في بحثه «هدف التصوف الإسلامي»[٥].

فالفناء أصل الطريق وغايته، ويتضمن أهم المقامات كالحب والمعرفة، وبه وحدة الشهود، وهو مطلب صوفي، ويفضي كذلك إلى وحدة الوجود، وبه يحصل الاتحاد والحلول، ومن لم يصل إلى مرتبة الفناء لم يعرف حقيقة التصوف.

ولذلك نجد الهروي في كتابه المنازل يقرر هذا تقريرًا عمليًا، حيث جعل الفناء حقيقة الدرجة الثالثة من كل منزلة، وقد صرح بذلك في أول كتابه، ومن المعلوم أن الدرجة الثالثة عنده هي أعلى المراتب، وهي مرتبة الوصول والاتحاد(٦).

أما أقوالهم في تفسير حقيقة التصوف به، فهي كثيرة، قال الجنيد: «**أن تكون مع الله بلا علاقة**»، «**هو أن يميتك الحق عنك ويحييك به**»[٧].

قال السهروردي معلقًا على هذا القول: «**وهذا المعنى هو الذي ذكرناه من كونه قائمًا في الأشياء بالله لا بنفسه**»[٨].

وقول الجنيد شيخ الطريقة يدور على الفناء، فالكون مع

١ - العوارف للسهروردي، ملحق بالإحياء، ٧٩/٥.
٢ - الرسالة للقشيري، ٥٥٢/٢، العوارف، ٧٩/٥.
٣- قوانين حكم الإشراق، أبو المواهب الشاذلي، ص ٦٠.
٤ - الموسوعة الفلسفية العربية، رئيس التحرير: معن زيادة، ٢٥٩/١.
٥- في التصوف الإسلامي وتاريخه، ص ٩٧.
٦ - منازل السائرين، الهروي، ص ٧.
٧ - الرسالة للقشيري، ٥٥١/٢.
٨ - العوارف، ٨٠/٥.

الله بلا علاقة هو الفناء، وحقيقة الفناء أن يحيا به؛ أي: يبقى بالله، ويموت عن نفسه؛ أي: يفنى عن نفسه.

قال الشبلي: «**الصوفية أطفال في حِجْر الحق**»[٩].

أي: ليس لهم أي تصرف ولا تدبير حتى في ذوات أنفسهم، بل ينتظرون تصريف الله لهم مطلقًا، وهذا هو حال الفاني، الذي لا يتقدم بين يدي الله بشيء دقّ أم جلّ، بل ينتظر تصريف الله له، مما قد يدعوه إلى ترك الكسب والسعي، بل والعبادة.

وهناك أقوال أخرى صريحة في الفناء، قولهم:

- «**التصوف: حال تضمحل فيها معالم الإنسانية**».
- «**الصوفي: المصطلم بما لاح له من الحق**».
- «**مقهور بتصريف الربوبية، مستور بتصرف العبودية**»[١٠].

فالاضمحلال والاصطلام مصطلحات تعبّر عن حقيقة الفناء، والربوبية هي مدار الفناء، فإن مرتبة الربوبية عندهم هي ذاتها مرتبة المعرفة، والمعرفة لا تكون إلا في حالة الفناء عن النفس، فالصوفي هو العارف، وهو الفاني، فالعارف هو الفاني.

ربما كان من المفيد أن ندرس عقيدة القوم بشكل مقتضب، فإن ذلك مما يعين على معرفة حقيقة التصوف، ولنأخذ كتابين من أقدم كتب الصوفية وهما: كتاب «**التعرف لمذهب أهل التصوف**» للكلاباذي، وكتاب «**الرسالة**» للقشيري.

فقد توسّع الكلاباذي في ذكر اعتقادات الصوفية الأوائل المتقدمين، وهي في أغلبها موافقة لاعتقاد السلف أهل السنة والجماعة، لكنها لم تخلُ من آراء المتكلمين، يتبين ذلك من وصفه للذات الإلهية بالصفات السلبية، حيث يقول: «ليس بجسم ولا شبح ولا صورة ...»[١١]. ويورد نصًا عن الحلاج -ينعته ولا يسمّيه- في الصفات السلبية، كما أورده القشيري أيضًا: «قال بعض الكبراء في كلام له ..»[١٢].

ووصف الله تعالى بالصفات السلبية طريقة جرى عليها المتكلمون، تخالف طريقة السلف الذين يتبعون المنهج القرآني؛ القائم على النفي المجمل والإثبات المفصل[١٣].

وهو في الجملة يثبت الأسماء والصفات يقول: «**وأجمعوا على أن صفات الله على الحقيقة هو بها موصوف**»[١٤].

ومما وافق به أهل الكلام قوله بأن كلام الله تعالى ليس بحرف ولا صوت، وأنه لم يزل آمرًا وناهيًا، مخبرًا واعدًا موعدًا، حامدًا ذامًا.

وخلافا للكلاباذي يذكر القشيري عقيدة الصوفية في الصفات فيعدّد سبع صفات على طريقة الأشعرية، لكنه يوافقه في أن كلام الله بلا حرف ولا صوت، وينقل قول الشبلي في ذلك، والباقلاني في «**الإنصاف**» ينقل قول الجنيد: «**جلّت ذاته عن الحدود، وجلّ كلامه عن الحروف، فلا حد لذاته، ولا حروف لكلامه**»[١٥].

وكلاهما يتفقان على نفي العلة في أفعال الله تعالى، يقول الكلاباذي: «**وأجمعوا أنه لا يفعل الأشياء لعلة**»، وينقل القشيري عن ذي النون: «**ولا علة لصنعه**»[١٦].

والقشيري أشعري يقرر عقيدة الأشاعرة، فالتوحيد معرفة وإقرار بأن الله فرد في ذاته وأفعاله، قال رويم: «**أول فرض فرضه الله على خلقه: المعرفة**»، وقال الجنيد: «**التوحيد: علمك وإقرارك بأن الله فرد في أزليته لا ثاني له، ولا شيء يفعل فعله**»[١٧].

كما أنهم ينفون علو الله تعالى واستواءه على العرش، وينقلون عن الحلاج قوله: «**ومن آواه محل، أدركه أين؟**»[١٨]، وسئل الشبلي عن العرش فقال: «**الرحمن لم يزل، والعرش محدث، والعرش بالمكان استوى**»[١٩].

وفي الإيمان يذهب القشيري إلى أنه: التصديق. وهو عقيدة غلاة المرجئة، مخالفًا بذلك الكلاباذي؛ الذي ذهب إلى أنه: قول، وعمل، ونية، موافقًا السلف.

قال الكلاباذي: «**الإيمان عند الجمهور: قول وعمل ونية، ومعنى النية التصديق**»، وفي الرسالة:«**الإيمان: تصديق القلوب**»[٢٠].

وفي القدر يقرر القشيري عقيدة الجبرية من خلال أقوال المتصوفة، يقول: «قال أبو عثمان المغربي: الخلق قوالب وأشباح تجري عليهم أحكام القدرة الإلهية، وقال الواسطي: «**لما قامت الأرواح والأجساد بالله وظهرتا به لا بذواتها، كذلك قامت الخطرات والحركات بالله لا بذواتها، إذ أن الحركات والخطرات فروع للأجساد والأرواح**»[٢١].

أما الكلاباذي فميله إلى قول السلف، قال: «**أجمعوا أن الله تعالى خالق لأفعال العباد كلها**»، وقال: «**وأجمعوا أن لهم**

---

٩ - الرسالة للقشيري، ٥٥٤/٢.

١٠ - الرسالة، ٢/ ٥٥٢، ٥٥٦، ٥٥٧.

١١- التعرف، ص ٤٥.

١٢- المصدر السابق، ص ٤٦، الرسالة، ٣٢/١.

١٣ - الرسالة، ص ٧٣.

١٤- التعرف، ص ٤٧.

١٥ - التعرف، ص ٥٣، الرسالة، ٣٠/١، ٤٩؛ الإنصاف للباقلاني، ص ١٤٩، ١٥٢.

١٦- التعرف، ص ٩٦، الرسالة، ٣٥/١، وانظر موافقتهم للمتكلمين: ص ١٣١.

١٧ - الرسالة، ٣٠/١، ٣٥.

١٨ - الرسالة، ٣٢/١.

١٩ - الرسالة، ٤٤/١، انظر قصة أبي عثمان المغربي مع خادمه حيث كان يعلّمه أن الله ليس في مكان ٣٧/١.

٢٠ - التعرف، ص ٩٤، الرسالة، ٣٥/١، قال الأشعري: «الإيمان هو التصديق بالجنان»، الملل والنحل، ص ١٠١.

٢١ - التعرف، ص ٥٨، ٦١.

أفعالًا واكتسابًا على الحقيقة، وأنهم بها مثابون، وعليها معاقبون... وأجمعوا أنهم مختارون لاكتسابهم، مريدون له، وليسوا بمحمولين عليه، ولا مجبرين فيه، ولا مستكرهين له»[٢٢].

الحاصل: أن عقيدة الصوفية تختلف باختلاف المنتمين إليها، فمن كان أشعريًا جعل أشعريته هي عقيدة الصوفية، ومن كان سنيًا جعل عقيدته عقيدة أهل السنة، والمعتزلي كذلك، فالمقصد: جملة أفكار فلسفية صوفية تعتنق ويعمل على رأسها: الفناء عن الذات والصفات، ثم لا مانع بعده من اعتناق أي دين كان، كما قال ابن عربي في ترجمانه:

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة
فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف
وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنّى توجهت
ركائبه فالحب ديني وإيماني[٢٣]

يقول أحمد أمين: «**فالتصوف نزعة من النزعات لا فرقة مستقلة كالمعتزلة والشيعة وأهل السنة، ولذلك يصح أن يكون الرجل معتزليًا وصوفيًا، أو شيعيًا وصوفيًا، أو سنيًا وصوفيًا، بل قد يكون نصرانيًا أو يهوديًا أو بوذيًا وهو متصوف**»[٢٤].

فليس الاجتماع على عقيدة واحدة غرض وهدف صوفي، بل يرون ذلك سببًا للهلاك، قال رويم: «**لا يزال الصوفية بخير ما تنافروا، فإن اصطلحوا هلكوا**»[٢٥].

لكن الصوفية في المسلمين أكثر التصاقًا بالأشعرية، فالقشيري والغزالي إمامان صوفيان أشعريان، والكلاباذي ذكر طرفًا من اعتقاد الأشعرية، وعبد الكريم الجيلي صاحب «**الإنسان الكامل**» يوافق في إثبات صفات سبع[٢٦].

والشعراني لم يسلم من تلك الآراء الكلامية في ذكره لعقيدة الصوفية[٢٧].

ويذكر الدكتور عمر فروخ عن سهل التستري أنه كان أشعريًا، وأن الشبلي كان يميل إلى الاعتزال، وأن الشيخ عدي بن مسافر أميل إلى الأشعرية[٢٨].

وقد قطع أبو علي المعبري النزاع في المسألة فقال: «أما عقيدتهم فعقيدة شيخ السنة أبي الحسن الأشعري وأصحابه من فاتحتها إلى خاتمتها»[٢٩].

ومما يؤكد ذلك، أن المتكلمين يستشهدون بأقوال هؤلاء الصوفية، كما صنع الباقلاني في كتابه «**الإنصاف**» حين استشهد بكلام الشبلي عن العرش، وبكلام الجنيد وغيره عن التوحيد والحرف والصوت، مما يدل على دخول أئمة التصوف في الكلام[٣٠].

وأكثر من ذلك، فإن إمام الأشعرية أبا الحسن الأشعري له تلمذة على الجنيد إمام الصوفية، ذكر ذلك التاج السبكي في ترجمته في «**طبقات الشافعية**».

وفي هذا المقام نذكّر برأي شيخ الإسلام ابن تيمية في هذه المسألة، فإنه يرى أن أئمة التصوف المتقدمين كانوا على اعتقاد السلف، وأن الصحيح الصريح المحفوظ عنهم غير ما ذكره القشيري في رسالته، وطعن في نقولاته عنهم وفهمه لكلامهم، وبدّعه ووصفه بأنه صاحب هوى، وقد ذكر رحمه الله عنهم آثارًا في ذم الكلام، وأطال في الاعتذار لشيء من كلماتهم الموهمة، وحملها على أحسن المحامل[٣١].

والوصف الأدق في هذا: أن الأوائل كانوا في جملتهم أقرب للسلف من الأواخر، وليسوا كأئمة الحديث في العلم والاقتداء، بل دونهم بما هم عليه من البدع، وقد نبّه ابن تيمية إلى هذا في مواضع.

فقد تبين بذلك: التنوع العقدي لدى المتصوفة. وليس ذلك في فرق الإسلام فحسب، بل في نطاق الأديان أيضًا، وشرطه: عدم معارضة ماهية التصوف؛ وما بدا معارضًا فمؤول تأويلًا يوافق به الماهية الصوفية، وهذه مهمة يتضلع بها المتصوفة بغير تحرج من إثم، ولا خشية من عتب؛ إذ يعدّون التصوف محورًا تدور في فلكه المذاهب والملل والنحل والعقائد، فهو لا يعارضها، وينبغي لها ألا تتعارض معه كذلك، ومن هنا كان التصوف منبعًا أو مسندًا لعقيدة وحدة الأديان، التي نوّه بها أئمة التصوف كثيرا من الحلاج إلى ابن عربي، وهما يردّدان القول:

عقد الخلائق في الإله عقائدا
وأنا اعتقدت جميع ما عقدوه

---

٢٢ - الرسالة، ٣٨/١.

٢٣ - ترجمان الأشواق، ابن عربي، ص ٤٣.

٢٤ - ظهر الإسلام، أحمد أمين، ١٤٩/٤، وجاء في تعليق (٢): «وبالفعل وجدت في العصر الحديث جمعية برياسة عناية الله، تجمع بين أديان مختلفة، وتصدر مجلة أسبوعية كل ثلاثة أشهر».

٢٥ - طبقات الصوفية، السلمي، ص ١٨١.

٢٦ - الإنسان الكامل، الجيلي، ٧٣/١-٨٧.

٢٧ - الأنوار القدسية، الشعراني، ص ١١، ١٣.

٢٨ - التصوف في الإسلام، ص ٦٦، ٧٠، ٧٨.

٢٩ - سراج القلوب وعلاج الذنوب، أبو علي المعبري، بحاشية قوت القلوب لأبي طالب، ٢٩٦/١.

٣٠ - الإنصاف، ص ٤٧، ٦٥، ١٥٢، وانظر ص ١٩٦، حاشية (٤٥)، فيه استشهاد الباقلاني المتكلم بكلام الجنيد الصوفي.

٣١ - الاستقامة، ابن تيمية، ٨٢/١-٢١٥.